المحاضرة الرابعة: النقد البنيوي التكويني

أولًا: مفهوم البنيوية التكوينية

يُعدّ النقد البنيوي التكويني أحد أهم المناهج النقدية الحديثة التي ظهرت في القرن العشرين ضمن سياق تطور البنيوية وتفرعاتها، وهو اتجاه نقدي حاول تجاوز حدود البنيوية الشكلية التي كانت تركز على دراسة النص الأدبي من الداخل فقط باعتباره بنية لغوية مغلقة.

وفي مقابل ذلك، جاءت البنيوية التكوينية لتؤكد أن النص الأدبي لا يمكن فهمه بمعزل عن السياق الاجتماعي والتاريخي الذي أنتجه، بل هو في جوهره تعبير عن علاقة معقدة بين البنية الداخلية للنص والبنية الخارجية للمجتمع.

وقد كان الرائد والمؤسس الفعلي لهذا الاتجاه هو الناقد والفيلسوف **لوسيان غولدمان**، الذي قدم تصورًا نقديًا جديدًا يقوم على مفهوم "رؤية العالم" وربط الأدب بالبنى الاجتماعية عبر وسائط فكرية وذهنية.

سميت البنيوية التكوينية بهذا الاسم لأنها تجمع بين بُعدين أساسيين في دراسة النص الأدبي:

أولًا، مصطلح "البنيوية" يشير إلى الاهتمام ببنية النص الداخلية، أي طريقة تشكّل عناصره اللغوية والدلالية والعلاقات التي تربط بينها داخل العمل الأدبي باعتباره نسقًا منظمًا.

أما مصطلح "التكوينية" فيحيل إلى عملية التكوين التدريجي للنص الأدبي، أي أنه لا يُنظر إلى العمل الأدبي كنتاج نهائي ثابت فقط، بل يُفهم باعتباره نتيجة مسار تكويني يرتبط بالسياق التاريخي والاجتماعي والثقافي الذي أنتجه.

وبذلك فإن هذا الاتجاه لا يكتفي بتحليل البنية الداخلية للنص، بل يربطها بعملية التكوين الاجتماعي والتاريخي للفكر الذي ينتمي إليه العمل الأدبي.

ومن هنا جاءت التسمية "البنيوية التكوينية" لأنها تمثل محاولة للجمع بين:

- دراسة البنية الداخلية للنص (البنيوية)
- ودراسة شروط تشكّل هذه البنية في الواقع الاجتماعي والتاريخي (التكوينية)

وقد أراد **لوسيان غولدمان** من خلال هذا التسمية التأكيد على أن النص الأدبي هو بنية دالة، لكنها في الوقت نفسه بنية متكوّنة تاريخيًا واجتماعيًا، وليست معطى لغويًا معزولًا.

كما سميت أيضا بـ:

- **البنيوية التوليدية**: لأن كلمة "تكوينية" أو "توليدية" تحيل إلى فكرة نشأة النص وتكوّنه تدريجيًا داخل سياق اجتماعي وتاريخي.

- **البنيوية الجينية**:وهي ترجمة مأخوذة من كلمة *Genèse* التي تعني ‘‘النشأة’’ أو ‘‘التكوّن’’، وتُبرز الجانب التطوري للعمل الأدبي.

البنيوية الاجتماعية (عند بعض الدارسين): لأنها تربط البنية الأدبية بالبنية الاجتماعية والطبقية. وأحيانًا تُدرج ضمن:
النقد الاجتماعي البنيوي أو **المنهج البنيوي الماركسي**، بسبب تأثرها الواضح بالفكر الماركسي عند تحليل المجتمع والطبقات.

ثانيًا: نشأة البنيوية التكوينية وروادها

نشأت البنيوية التكوينية في منتصف القرن العشرين، في سياق فكري تأثر بالماركسية واللسانيات الحديثة والفلسفة الهيجلية. وقد جاءت كرد فعل على البنيوية الشكلية التي أهملت السياق التاريخي والاجتماعي للنص الأدبي.

ويُعتبر **لوسيان غولدمان** المؤسس الحقيقي لهذا المنهج، حيث عمل على تطوير أفكار أستاذه **جورج لوكاتش**، خاصة فيما يتعلق بمفهوم الوعي الطبقي والرواية ورؤية العالم.

كما استفاد غولدمان من الفلسفة الهيجلية ومن مفاهيم علم الاجتماع، ليبني مشروعًا نقديًا جديدًا يربط بين النص الأدبي والبنية الاجتماعية بطريقة غير مباشرة عبر ما سماه ‘‘البنى الذهنية’’.

ثالثًا: أهم المبادئ التي قامت عليها البنيوية التكوينية

يقوم هذا المنهج على مجموعة من المبادئ الأساسية التي تشكل أدواته التحليلية:

1- **"الفهم والتفسير"** : حيث يرى غولدمان أن دراسة النص تمر بمرحلتين مترابطتين:
- الفهم وهو تحليل النص من الداخل كما هو، دون إضافة عناصر خارجية.
- التفسير وهو ربط النص بسياقه الاجتماعي والتاريخي واكتشاف دلالاته العميقة.
2- **"البنية الدلالية"**: وهي النظام الداخلي للمعاني داخل النص، والذي يكشف عن الرؤية الفكرية التي يحملها الكاتب أو الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها النص.
3- **‘‘رؤية العالم’’:** وهو المفهوم المركزي في هذا الاتجاه، ويعني مجموعة من الأفكار والقيم والمعتقدات التي تشترك فيها جماعة اجتماعية معينة، بحيث تعكس هذه الرؤية وعيًا جماعيًا يتجسد في العمل الأدبي. ويرتبط بذلك التمييز بين الوعي الفعلي والوعي الممكن؛ فالوعي الفعلي يعكس الواقع كما هو، بينما الوعي الممكن يعبر عن إمكانيات التغيير والتجاوز نحو مستقبل مختلف.
4- **"البنية الدالة":** وهي من المفاهيم الأساسية في البنيوية التكوينية، وهي تمثل الأداة التي تسمح بفهم العمل الأدبي من حيث دلالته الفكرية والجمالية، فالنص الأدبي لا يُفهم فقط من خلال شكله اللغوي، بل من خلال بنيته الدلالية التي تعكس رؤية العالم التي تنتمي إليها الجماعة الاجتماعية المنتجة له. وتتميز البنية الدالة بأنها تجمع بين

التحليل الداخلي للنص وربطه بالبنية الاجتماعية، مما يجعلها وسيلة لفهم النص في كليته.

5- **العلاقة بين الأدب والمجتمع:** يرى غولدمان أن العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست علاقة مباشرة، بل تمر عبر بنى ذهنية وسيطة. فالأدب لا يعكس الواقع بشكل آلي، بل يعبر عنه من خلال رؤية العالم التي تتشكل داخل المجتمع.وبذلك تتجاوز البنيوية التكوينية نظرية الانعكاس البسيطة، لتقدم تصورًا أكثر تعقيدًا يرى أن النص الأدبي هو نتاج تفاعل بين البنية الاجتماعية والبنية الذهنية والبنية الفنية.

رابعا: تقييم النقد البنيوي التكويني:

من بين من أهم إيجابيات هذا المنهج أنه يجمع بين التحليل الداخلي للنص والتحليل الخارجي المرتبط بالمجتمع، مما يمنح القراءة النقدية شمولية أوسع.كما أنه يساعد على فهم النص الأدبي في سياقه التاريخي والاجتماعي، ويكشف عن البعد الفكري والإيديولوجي للأدب، ويعتبر الأدب تعبيرًا عن رؤية جماعية للعالم وليس مجرد تجربة فردية.

لكن رغم أهميته، فقد وُجهت له عدة انتقادات، أهمها أنه يركز بشكل كبير على البعد السوسيولوجي على حساب الجانب الجمالي والفني للنص. كما أنه يُتهم بإهمال الجانب النفسي للكاتب، وعدم إعطاء أهمية كافية لدور القارئ في إنتاج المعنى. إضافة إلى أن تركيزه على الإيديولوجيا قد يجعل التحليل قريبًا من علم الاجتماع أكثر من النقد الأدبي.

وختاما يمكن القول إن النقد البنيوي التكويني يمثل محاولة جادة لفهم الأدب بوصفه ظاهرة اجتماعية وفكرية في آن واحد، حيث يربط بين النص والواقع من خلال مفهوم رؤية العالم. وقد ساهم هذا المنهج في تطوير النقد الأدبي الحديث من خلال تقديم أدوات تحليل جديدة مثل الفهم والتفسير، والبنية الدلالية، والوعي الفعلي والممكن، مما جعله أحد أهم المناهج النقدية المعاصرة.

المراجع:

- غولدمان، لوسيان. **البنيوية التكوينية والنقد الأدبي**، ترجمة محمد سبيلا، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 2002.
- لحمداني، حميد. **الفكر النقدي الأدبي المعاصر: مناهج وتيارات**، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 1991.
- حمداوي، جميل. **مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر**، الرباط: مكتبة المعارف، 2011.
- فضل، صلاح. **مناهج النقد المعاصر**، القاهرة: دار الآداب، 1998.
- الغذامي، عبد الله. **الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998.
- يقطين، سعيد. **تحليل الخطاب الروائي**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1989.

- مفتاح، محمد. **تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص**، الدار البيضاء: دار توبقال، 1985.
- مرتاض، عبد الملك. **في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.
- لوكاتش، جورج. **نظرية الرواية**، ترجمة: فريد الأنطوني، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- سوسير، فرديناند دي. **محاضرات في اللسانيات العامة**، ترجمة: عبد القادر قنيبة، دمشق: دار الفكر.
- بارت، رولان. **لذة النص**، ترجمة: منذر عياشي، بيروت: دار توبقال.
بياجيه، جان. **البنيوية**، ترجمة: عادل العوا، بيروت: عويدات للنشر والطباعة.